الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الخليفة والمنجِّم: سياسة التَـنجيم الحَكَمي في بدايات العصر العبـّاسي- الخليفة المنصور وتحفيز ثقافة التنبؤات-

The Caliph and the Astrologer: al-Mansūr and the Culture of "Omens;" A Study of the Political Role of Judicial Astrology in the Early Abbasid Period

د. عبير عبدالله عبدالوهاب العبّاسي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز – جدة
abeer_abbasi@yahoo.co.uk

ملخص

بدوافعَ من رغبة عارمة سيطرت على العقلية الحاكمة لخلفاء الدّولة العبـّاسية الأُوَل، بخصوص تأصيل فكرة "شرعيـّة حاكميتهم،" استنفذ العبّاسيون كل جهد ممكن (بكل درجاته: من الرصين إلى المستهجن)، يساهم في إقناع محكوميهم بأهليتهم كخلفاء شرعيين مستحقين عن جدارة للخلافة، دونا عن غيرهم من سلفهم الأمويين الذين أسقط العبـّاسيون دولتهم في العام 132/ 749، ومن الطامعين في السلطة من الأحزاب السياسية العديدة التي ظهرت منافسة لهم في دعوى الأحقية في الملك.

في استجابة لذلك الهاجس السياسي، وظّف العبـّاسيون عديداً من التقنيات، متعددة الأوجه ومتفقة الأهداف مع الإيديولوجية العبـّاسية الحاكمة التي كانت في طور التكوين والتـأسيس. على وجه الخصوص، شُغف العبـّاسيون بالأعلى والأدنى درجةً من تلك التقنيات، وهما: 1- لوي عنان الفهم لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (ذات الصلة بمفاهيم "استحقاق الحاكميـّة") لتتفق والرؤية السياسية للعبـّاسيين؛ 2- توظيف كل ممكن من فروع المعارف الغيبيـّة (بخاصة ذات الهدف التّنبّؤي)، من مثل:الغوامض occult (ومن فروعها الكهانة والعرافة)، علوم الخواص esoteric، والميتافيزيقيا metaphysic.

التنجيم، تحديدا، الذي كانت طبيعته، في أوائل ذلك العصر، مزيجا من علم الخواص والميتافيزيقيا، حصل له بعث من جديد على أيدي أوائل الخلفاء العبـّاسيين، بعد أن كان قد خبت ضوؤه في العصور السابقة لهم، تحديدا خلال عصري المبعث النبوي والرّاشدين، وإلى حدٍ ما عصر الأمويين، وذلك لأسباب مفهومة—تتعلق بتحريم الإسلام لهذا النوع من المعارف البشرية. هذا البحث يدرس ظاهرة البعث لعلوم التنجيم على أيدي العبـّاسيين، في فترة حكم الخليفة أبي جعفر المنصور تحديدا (ح. 136-185/ 754-775)؛ باعتباره المؤسس الحقيقي للدولة العبـّاسية وعرّاب نظم الحكم فيها، ويصب اهتمامه على كشف الكيفية التي حصل بها ذلك البعث، والأسباب الداعية له. البحث يوظف منهجية تاريخية كرونولوجية تتبع الأحداث التاريخية حسب تسلسلها الزمني في التوصل لتلك الدواعي، وتكشف كيفيات وأسباب ذلك البعث من خلال ربطه بطبيعة كلٍ من التنجيم والإيديولوجية الحاكمة في ذلك العصر. بناءً عليه، فالبحث يؤطـّر لرؤية تذهب إلى أن السببَ الرئيس الذي بعث لأجله المنصور المعارف التـّنجيمية من جديد كان رغبتَه الملحة في التأسيس لسمات حاكميـّة خاصة، تميز طبيعة خلافة العبـّاسيين، ذات صلة بمفهوم "الخلافة المثالية." للتوضيح أكثر، المسألة الجدلية التي يدور حولها النقاش في هذا البحث هي أن إيديولوجية الفكر العبـّاسي الحاكم، على عكس الإرادة الدينية السائدة، منحت العامة حرية الاعتقاد في التنجيم، وفتحت ساحات بلاط السلطة الحاكمة لممارسة نشاطاته – دون قيود ملزمة من سلطة دينية – بغرض تحقيق أهداف سياسية، لم تكن لتتحقق بغير عون من تلك المعارف التنجيمية. لوضعها جليـّة، الطبقة الأولى من خلفاء بني العبـّاس بعامة والمنصور بخاصة، اعتبروا التنجيم أداة لا غنًى عنها في تأكيد "سلطتهم المطلقة" كحكّام شرعيين.

وعليه، فدافعهم لتوظيف التنجيم، ضمن التقنيات المؤكّدة لهذا المفهوم "السّلطوي" بمعناه "المطلق،" كان لقدرة التنجيم على عكس وتأصيل بعض السمات الخاصة بمفهوم "السلطة المطلقة،" كما تصورها العبـّاسيون، على أنها: شرعيّة، حتميّة، وأبديّة. والتنجيم كان أداتهم التي قنّعوا بها تلك الرغبات السياسية للحكـّام العبّاسيين، وألبسوا أنفسهم من خلالها رداء الفارس المدفوع "قَدَرا" لإنجاز 'مهام نبيلة،' غايتها تحقيق 'صالح اجتماعي' للمحكومين، لا 'لإشباع ملذات سياسية' للحَاكِمين.

الكلمات الدالة : ثقافة النُبوءات، الخلافة العبّاسية، التنجيم السياسي/الحَكَمي، بواعث إحياء تنجيم العصور الإسلامية الوسطى، صورة الخلافة المثال (النموذج)، الخلفاء الشرعيُون، الخليفة المنصور.

Abstract

Obsessed with the notion of 'legitimacy of rulership,' the early Abbasid caliphs employed all possible techniques (these ranged from the sophisticated (sacred) to the trivial (profane)) to convince their subjects of their status as 'rightful caliphs.' To fulfill their political ambitions, the top priority of this double-faceted convincing strategy was (1) the manipulation of Qur'anic verses along with the Prophetic Hadiths; and (2) the application of various branches of divination (the occult, the esoteric, and the metaphysic). Astrology, in particular, with its reputation for age-old wisdom, was reintroduced for the purpose of establishing certain ruling characteristics contributed to the idea of 'ideal caliphate.' I am arguing that the Abbasid imperial ideology allowed astrology to operate freely and participate openly in court activities to satisfy political agenda; astrology was considered by the early Abbasid caliphs as being an indispensable tool for affirming the comprehensive authority of their rulership. The Abbasids' motive behind these political policies was to reflect certain aspects of their rulership fundamental to the notions of a legitimate, absolute, and everlasting ruling-dynasty. This cloaked their political agenda in guise of the claim of accomplishing a noble mission.

keywords: *Culture of omens, Abbasid Caliphate, Political/judicial Astrology, Revival of medieval Muslim Astrology, Ideal Caliphate, Legitimate Rulers, The Caliph al-Mansūr.*

مقدمة

سادت ثقافة كشف الغيبيات في جزيرة العرب في عصر ما قبل الإسلام، والتنجيم كان أحد أوجه الكهانة التي تبوَّأت مكانا رفيعا في ذلك المجتمع، لما أظهرته من قدرة على التَّنبؤ بالمستقبل. مع ظهور الدين الجديد، أنكر النبي (ص) وأتباعه (من أهل السنة والجماعة خاصة)، جميع فروع المعرفة المتعلقة بالكهانة، ومنها التنجيم، باعتبار ما تحمله من دلالات تصب في معنى الشرك بالله[1]. لكن، وعلى الرغم من هذا التحريم لمثل هذه النوعية من الممارسات المتعلقة بالمعرفة الغيبيَّة، فقد استعاد التنجيم مجده وبريقه، كأحد فروع المعرفة الإنسانية، على يد الأسرة العبَّاسية، نتيجة تبنِّيها لإيديولوجية حاكمة اعتمدت التنجيم كإستراتيجية أساسية من تثبيت دعائم الحكم.

في الحقيقة التعرف على طبيعة الفكر الحاكم لخلفاء بني العباسي في هذه الفترة، والمنصور بخاصة، باعتباره الراعي الرسمي لبعث علوم للتنجيم في العالم الإسلامي في عصوره الوسطى، هي غاية في الأهمية عند إرادة البحث في الأسباب السياسية التي بعثت بالتنجيم من جديد. هنا وجب التنويه إلى أن الدراسة التي قدَّمها Dimitri Gutas التي تبحث في هذا الدافع على وجه الخصوص قد فصَّلت وأجملت القول في هذا الرأي. والدراسة الحالية تعزز ما توصلت إليه دراسة جوتاس من نتائج تتعلق بوجهة النظر الذاهبة إلى أن من دوافع العبَّاسيين الرئيسة في إحياء التنجيم من جديد كان رغبتهم في التأسيس لفهم جديد لمفهوم الحاكميَّة في العالم الإسلامي، مستندٍ في مقوماته إلى معاييرَ ثقافية 'مستوردة،' هدفها الأساس إفساح مجال لثقافات غير عربية (فارسية بخاصة) لتبرز كمكون رئيس في نسيج الإمبراطورية العباسية، وتكون من عوامل استتباب ملكها، باحتواء المنتمين إلى تلك الثقافات في المجتمع العباسي [2]. لكن الجديد الذي تضيفه الدراسة الحالية إلى الجهد المميز للمستشرق جوتاس، وتهدف إلى لفت الانتباه إليه، هو تبيان أن توظيف التنجيم في العصر العبَّاسي كان دافعه ابتداءً هو (منهجية الهدم والبناء) التي اتبعها العبَّاسيون في التأسيس لملكهم: هدم جميع ما يمت بمفاهيم سياسية متعلقة بأحقية سلفهم الأمويين في الحكم، وإحلال مفاهيم جديدة مكانها تؤصل لأحقية العبَّاسيين، دون غيرهم، في خلافة العالم الإسلامي، ناسفين بذلك جميع المبادئ التي تمكِن الأمويين من استعادة ملكهم، وذلك من خلال تطبيقهم لمبدأ "وداوها بالتي كانت هي الداء." الدراسة تكشف كيف أن إعادة بعث التنجيم على أيدي العباسيين كان في مبدئه رغبة العباسيين (المنصور تحديدا) في مواجهة ادعاءات الأمويين بأحقيتهم في الحكم، من خلال توظيف استراتيجيات (ذات طبيعة تنبوئية) حاول

الأمويون توظيفها ابتداءً للتمكين لحكمهم، لكنها لم تثبت فاعلية في نتائجها زمنَ الأمويين (لأسباب لا مجال لبحثها الآن، لكن من أهمها قرب زمنهم بعهد المبعث النبوي)، ومن ثمَ أعاد العباسيون توظيفها، على أسس متينة، مستفيدين في ذلك من علاقتهم الوثيقة مع الفرس، وهي علاقة مكنتهم من الاطلاع على الأسس الصحيحة لتوظيف تلك 'المفاهيم المستوردة' في تثبيت حكمهم، لتثمر سياسات ناجحة أسهمت في تحقيقهم مطامع سياسية. بمباشرة في الطرح، ما تذهب إليه هذه الدراسة هو تبيان أن معارضة العباسيين للأمويين في منهجيات حكمهم، بإعادة توظيف إستراتيجياتهم الحاكمة، بتقنيات أكثر فاعلية، كان هو الدافع الرئيس في بعث العباسيين للتنجيم من جديد. أما ما يذهب إليه المستشرق جوتاس في أن إعادة إحياء التنجيم على أيدي العباسيين كان دافعه رغبة العباسيين في تضمين الفرس في النسيج الأصيل للهوية العباسية، من خلال دمج عناصر هامة من ثقافتهم بالثقافة العربية الإسلامية، ليضمنوا بذلك ولاءهم ودعمهم الذي تأسست به الدولة العباسية، فتعتبره الدراسة الحالية دافعا داعما، وليس أصلا، في أسباب بعث التنجيم في العصر العباسي.

محاولات إحياء التنجيم في العالم الإسلامي: بين إرهاصات الأمويين ونجاحات العباسيين: الدوافع والغاية

بخلاف ما هو شائع عن أن الإرهاصات الأولية في إحياء علوم التنجيم في العصور الوسطى للعالم الإسلامي كانت على يد العبَّاسيين، إلا أن رضي الدين علي بن موسى بن طاووس (ت. 664هـ/ 1266م)، صاحب المؤلَّف الشهير فرج المهموم في تأريخ علم النجوم، يخبرنا أن أُولى "محاولات" البعث للتنجيم على أيدي ملوك العرب كانت على يد مؤسس الخلافة الأموية (معاوية بن أبي سفيان (ح. 41-60/661-680))، حيث يقول:

وأقول، فلما تفضل الله-جل جلاله-على الخلائق بمحمد "ص" رحمة للعالمين واتصل الوحي بالغائبات وبمهام الإسلام والمسلمين استغنى الناس عن علم النجوم إلى أن نقله الله جلِ جلاله إليه صلوات الله عليه، [و] كان الصحابة متفانين بحفظ سنته، فلما بلغ الأمر إلى معاوية، عاد الحديث إلى قاعدة الأكاسرة، وبدأ معاوية بسنن الجبابرة، وأعرض عما يصح منه علوم الدنيا والآخرة. [3]

معاوية إذن، كما يذكر ابن طاووس، هو أول فاتح لباب التنجيم على مستوى الخلفاء المسلمين، وأول معتقد في دوره على المستوى السياسي. ولتوضيح ما عناه بعودة الحديث في عهد معاوية إلى "قاعدة الأكاسرة،" فقد عرف بها في فقرة سابقة لقوله السابق من كتابه؛ حيث يذكر إنَه كانت من عادة ملوك الفرس، إذا أرادوا الولد، أن يحضروا منجما يأخذ طالع اللحظة التي ينزل فيها ماء الملك في رحم الجارية ،عند جماعه لها، فيحكم بما يكون عليه المولود المتوقع له أن يرث ملك الفرس مستقبلا. ويخبرنا أبو القاسم عمر الزمخشري (ت. 538/ 1143) في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار أن معاوية قال لدغفل بن حنظلة (ت. 65/ 685)، نسابة العرب، حين ضمه إلى ابنه يزيد 'أن يعلمه العربية والأنساب والنجوم. [4]'

لكن، على الرغم من هذه المحاولات البدائية لبعث التنجيم، إلا أنه لم يبرق نجمه 'رسميا' على الساحة السياسية ويستعد كامل عافيته إلا مع بداية بزوغ نجم العباسيين كحاكمين للإمبراطورية الإسلامية (132-656/ 750-1258) خلفا للأمويين (41-132/ 661-750) (تحديدا، مع تولي المنصور للخلافة عام 136/ 754). في هذا الخصوص، يذكر المسعودي في مروج الذهب، أن المنصور "كان أول خليفة قرب المنجمين، وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نُوبَخْتُ المجوسي المنجِم، وأسلم على يديه، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفرازي المنجم، صاحب القصيدة في النجوم، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الإسطرلابي المنجم." [5] وتستمر هذه العناية 'الرسمية' بالتنجيم حتى نهاية العهد المأموني (218/ 833)، وذلك من خلال حركة الترجمة التي كانت أبرز ملامح العصر الثقافية. التنجيم إذن استمر ما يُقارب ثمانين عاما محاطا بالرعاية من قِبَل النخبة الحاكمة في عصر العباسيين الأُوَل.

الشاهد، من العرض لهذه الإرهاصات الأموية وما تبعها من محاولات جادة من العباسيين في إحياء علوم التنجيم، هو تبيان أن معاوية بن أبي سفيان هو 'أول خليفة مسلم' وظف التنجيم لأسباب سياسية، متبعا فيه منهج الفرس "قاعدة الأكاسرة،" ضاربا عرض الحائط بتصرفه هذا بالتعاليم الإسلامية المحرمة لهذا النوع من المعارف. وعليه، فوجهة النظر السائدة التي تبرز العباسيين على أنهم أكثر من شُغف باتباع التقاليد الفارسية في الحكم، متميزين في ذلك عن سلفهم الأمويين، لا يثبتها نمط الممارسات الإدارية لحكام بني أمية. في هذا السياق يقول رضوان السيد:

لقد شاعت منذ أكثر من خمسين عامٍ الفكرة التي تقول إنِ صراعاً نشب في أوساط كُتّاب الديوان أواسط أيام الأُمويين علىّ النموذج]في نظام الحُكم[، وهل يكون الموروث اليوناني]...[أم الإيراني. ويتابع هؤلاء قائلين إنِ تقاليد المُلك وآيينه انتصر في مجالها النموذج الإيراني، بينما تقدم النموذج اليوناني في المسائل الفلسفية والفكرية. [6]

في ضوء وجهة النظر هذه، يتضح لنا أن المنصور لم يكن مبتدعا بل 'متبعا' لعين المنهجية التي تبناها مؤسس الخلافة الأموية من قبله—في توظيفه فكرا سياسيا مستوردا، مستندا في أساسه على موروث سياسي فارسي، كان فيه التنجيم من جملة استراتيجياته (كما بين الشاهد أعلاه عن استخدام معاوية لقاعدة الأكاسرة).

في الحقيقة، لقد كان العباسيون مقلِّدين، في خطهم العريض الذي تأسست عليه سياسات حكمهم، لسلفهم الأمويين، رغم

انتقاداتهم لهم في خطبهم التي حاولوا فيها تنفير الجمهور من سلفهم في خلافة الملك.[7] الأخبار الواردة عن تقليد العباسيين في سياساتهم للأمويين متناثرة هنا وهناك في كتب التراث.[8] ولم يكن اتباع العباسيين للأمويين في تدبير أمور مملكتهم مقصورا على النواحي السياسية الصريحة فقط، بل شمل أيضا النواحي الثقافية ذات الأبعاد السياسية. حيث يمكن القول إن التأسيس لحركة الترجمة التي شهدها العصر العباسي والتي أثْرَت في تدفق العلوم التنجيمية في المعارف العربية على أسس فلسفية ميتافيزيقية[9]، كان العباسيون يحذون فيها حذو سلفهم الأمويين، الذين أسسوا لأولى ملامح حركة الترجمة تلك، التي عنت بنقل كتب التنجيم إلى العربية، لتكون ضمن أهدافها الأوليَّة[10]. هذا الاتباع من العباسيين للأمويين، في سياساتهم الحاكمة، يثبت أن الدافع الأساس في بعث العباسيين للتنجيم لم يكن ينبع فقط من رغبتهم في إقناع الفرس بالخضوع لحكمهم، حسب أحكام النجوم التي صدقوا بها، كما يذهب إلى ذلك جوتاس، كما أشرنا أعلاه، بل منبعه بالأساس 'سياسة الإزاحة والإحلال' التي تبنوها في تخليص محكوميهم من أي أثر مادي أو معنوي من ادعاءات الأحقية بالملك لسلفهم الأمويين: فهم ينقضون كل 'مزاعم' الأمويين المتعلقة باستحقاقهم للحكم، ويبنون على أنقاض تلك المزاعم 'دعاوى' استحقاقهم هم – آل العباس – للملك دونا عن غيرهم، مستخدمين في ذلك وسائل الإقناع ذاتها التي استخدمها الأمويون، لكن باحترافية أعلى في توظيفها. يمكننا القول هنا إنه في ضوء هذه السياسة 'الإحلالية' تم توظيف التنجيم بشكل احترافي لتحقيق رغبة ملحة عند الأسرة الحاكمة "العباسية،" أو بالآكد "المنصورية،"[11] تمثَّلت في الحكم بمفهوم السلطة المطلقة،[12] من منظور تنجيمي 'ثلاثي الأبعاد،' محاوره هي: التعيين الرباني؛ حتمية الحكم؛ وديمومة الملك (في أسرة بني العبَّاس عموما، وفي عقب المنصور خصوصا)، كما سيتبين لاحقا.

تنجيم العصر الإسلامي الوسيط: طبيعته ووظيفته

أسس العبَّاسيون سلطانهم على دعواهم أن خلافتهم كانت قدرا مقدروا من رب العالمين، وأن اختيارهم "كخلفاء الله في أرضه" هو تعيين رباني،[13] وعليه فقد أوحَوا إلى محكوميهم أنَّ الخروج على الحاكم هو عدم خضوع لأمر ربَّاني، وعليه منْطَقوا هذا الفهم بأن مقاومة الاعتراف بسلطة الخليفة هو مقاومة واعتراض على قضاء الله وقدره. السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما صلة هذه الرؤية الخاصة بـ"حاكميَة العباسيين" ومسألة بعث التنجيم على أيديهم؟ للإجابة على هذا التساؤل، لابدَ أن نأخذ في الاعتبار، ابتداءً، أن قيام دولة بني العبَاس بُنى على أساس اعتقاد قوي يفيد بأن تغلبهم على الأمويين وتمكنهم من السلطة تحقق بعون ومدد إلهي، ليس فقط لتمكينهم من خلافة الأمويين، الذين – في رأيهم – عاثوا في الأرض فسادا،[14] بل أيضا لإيهام محكوميهم أن سلطانهم هو قضاء رباني واجب النفاذ، وأن امتداده سيكون حتى قيام الساعة. الوسائل التي وظفوها في سبيل إشاعة هذه الإدعاءات بين جمهور الشعب كانت عديدة ومتنوعة، ومستندة في زعمها إلى آيات قرآنية، أحاديث نبوية، خطب ديوانية، أشعار منظومة، رؤًى وأحلام مُدعاة، نبوءات تنجيمية، هواتف وصدى صوت، وغيرها من وسائل الدعاية والترويج لمفاهيم متعلقة باستحقاقهم للخلافة مما لا مجال لاستعراضها تفصيلا هنا. لكن اللافت للانتباه هي أنها جميعها وسائل سبقهم الأمويون في توظيفها لذات الغرض، وذلك كما أشرنا إلى بعضها في عجالة أعلاه.[15] ما نريد التركيز عليه من هذه الوسائل هنا هو "تقنية التنجيم" وما ادعاه منجمو القصر العباسي من نبوءات تذهب إلى ترويج القول بما يتفق ورؤية الخلفاء العباسيين فيما يتعلق بأحقيتهم بالملك؛ كونها أتتهم بعون وقدر رباني حملهم أمانة ملك وإدارة إمبراطورية 'دون حولٍ منهم ولا قوة.'

عن ابتداء العلاقة بين الخليفة العباسي ومنجمه، يخبرنا ابن كثير، صاحب البداية والنهاية، أنها كانت في ذلك اللقاء الذي جمع المنصور مع نُوْبَخت المنجم بن فروخان (679-777/59-160) في أحد سجون بني أمية، قبل قيام دولة بني العباسي، وأن هذا الأخير توسم في المنصور الرِّياسة أول ما رآه، وقال له مستفسراً: "ممن تكون؟" فقال: "من بني العباس،" فلما عرف منه نسبه وكنيته قال: "أنت الخليفة الذي تلي الأرض،"فيرد المنصور متعجباً: "ويحك ماذا تقول؟" فيرد المنجم واثقا من نبوءته: "هو ما أقول لك، فضعْ لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئا إذا وُلِيتَ،" فكتب له المنصور، فلما ولي [الخلافة] أعطاه [المنصور ما خطه في الرقعة من وعود]، وأسلم نُوْبَخت على يديه، وكان قبل ذلك مجوسيا، ثم كان من أخص أصحاب المنصور."[16]

في الحقيقة، مثل هذه النوعية من الأخبار المنقولة عن الخليفة المنصور دعت بعض التراجم التاريخية الباحثة في سيرته إلى تصويره على أنه كان مصدِّقا على الحقيقة في النبوءات التنجيميَّة، بل ومسيِّرا لبعض شؤون مملكته على أساسها. انظر، على سبيل المثال، ترجمته في سير أعلام النبلاء، حيث الذهبي (ت. 748هـ) يقول عنه: "وقد كان المنصور يُصغي إلى أقوال المنجمين، ويَنْفُقُون عليه، وهذا من هناته مع فضيلته."[17] وعلى ذات المسار، نجد غالبية الدراسات المعاصرة تتفق مع هذه الرؤية التاريخية عن المنصور؛ باعتباره مصدقا في التنجيم. فعبد الغني الملاح، مثلا، في دراسته المعنونة "العجوز في ألف ليلة وليلة،" يحلل دافع المنصور في تأسيس مدينته بغداد على أساس حسابات تنجيمية إلى "قناعته بتأثير النجوم على أعمال أهل الأرض."[18]

على النقيض من هذا الاعتقاد الشائع عن المنصور، فهكذا أخبار تثير عندنا عدة تساؤلات: هل صدَّق المنصور حقا في نبوءة المنجم، أم كان على دراية بطبيعة التنجيم "الحدسيَّة" (القائمة على ظنية الطرح، دون حتمية مستندة إلى قوانين علمية)؟ وهل كان، بينما هو يحاول دفاعا عن "مصداقيته" وصحة ما يأتي

به من نبوءات، مقتنعا في قرارة نفسه بالتنجيم كعلم أم بكونه أداة لتحقيق أهداف سياسية؟ ونتساءل أيضا: هل لعب التنجيم دوره المنوط به بفاعلية على البلاط الملكي؛ بحيث تحققت من خلاله نتائج ما كان يرجوه الخلفاء من توظيفهم له سياسيا؟ وأخيرا، ما هي شكلية العلاقة التي ربطت بين الخليفة والمنجم في عصور الحكم العباسي الأولى؟

استنادا إلى الخبر المروي عن ابن كثير أعلاه، المنجم نُوْبَخت والمنصور، كانا سجينين خلف أسوار الحبس في أواخر أيام العهد الأموي. فيتنبأ نُوْبَخت للمنصور بأنه سيخرج من السجن، بل وسيكون "الخليفة الذي سيلي الأرض،" ويُظهر ثقةً في نبوءته ويستحكم على أثرها لنفسه بوعد مكتوب من 'خليفة المستقبل' جزاء نبوءته تلك. تتحقق النبوءة بتفاصيلها، ويخرج المنصور من السجن، ويصبح خليفة المسلمين، ويتوجه نُوْبَخت إليه في تذكيرٍ بوعده الذي قطعه على نفسه، فيأخذ نُوْبَخت الجائزة ويصبحُ منجم البلاط الحاكم، وصاحبا ملازما للخليفة صحبة لا تنتهي إلا بوفاته. هذا ما تقوله المصادر التاريخية إذن عن ابتداء العلاقة بين السلطة الحاكمة العباسية والمنجمين، وما تعرضه على أنه حقيقة مسلم بحدوثها فعليا في ذلك العهد، وتشرح به سبب ابتداء صحبة المنصور الخليفة لنُوْبَخت المنجم. لكن الشك يساور القارئ الحصيف في صحة تلك النبوءة ووقوعها على الحقيقة؛ فنُوْبَخت كان سجينا، ومن المفترض أنه، وحالته تلك، كان مجردا من كل الأدوات التي يتمكن بها المنجم من ادعاء نبوءاته، فكيف أمكنه إذن التنبؤ بكل ما أخبر به المنصور، وهو صفر اليدين من إسطرلابه وزيجه وكل ما لابد أن يتوفر له من أدوات يمارس بها عمله كمنجم؟ الموضوع لا يعدو إذن أن يكون محض إشاعة أراد المنصور من ترويجها إثبات مصداقية للمنجمين الذين اتخذ منهم صحبة ملازمة له في تصريف شؤون ملكه، وتعزيز مفهوم الإرادة الربانية في اختياره خليفة للمسلمين: هو قدر مقدور لغيب استطاع استباق كشفه منجم المنصور، وقت حبس الأخير في سجون أعدائه الأمويين، كما تدعي الأخبار التي شاعت عن هذه الحادثة.

وهناك رواية ثانية تحكى ما جرى تفصيلا بين نُوْبَخت والمنصور في سجن الأهواز على لسان نُوْبَخت الذي كان مجوسيا حينها؛ حيث يقول للمنصور: "أبشرْ وجدتُك في الأحكام النجومية تملكني وجميع ما في هذا البلد حتى تملك فارس وخراسان والجبال،" فيجيب المنصور: "وما يدريك يا مجوسي؟" فيرد نوبخت: "هو كما أقول، واذكر لي هذا!" فيرد المنصور: "إن قضى الله فسوف يكون،" فيقول نُوْبَخت واثقا: "قد قضى الله من السماء، فطب نفسا." ثم يذكر نوبخت في إكمال روايته إنه وجد دواةً في السجن فطلب من المنصور أن يكتب فيها التالي: "بسم الله الرحمن الرحيم، إذا فتح الله على المسلمين، وكفاهم معرة الظالمين، ورد الحق إلى أهله، فلا نغفل!" ويزيد على ذلك نُوْبَخت بأن يطلب من 'خليفة المستقبل' "أن يكتب له من خدمته حظا وأمانا،" فيمتثل المنصور لأمره، ويفي بوعده بعد تحقق النبوءة وتبوئه الخلافة، ويكون وعد السجن هذا سببا في ابتداء العلاقة 'رسميا' بين خلفاء بني العباسي ومنجمي البلاط الحاكم.

إذن، سواء كان عرض الرواية بصورتها الأولى، وما حوته من خلل في تفسير الكيفية التي تم بها التنبؤ، أو بصورتها المعدلة، التي تبرر للنبوءة بأنها من العلم الحاصل لنُوْبَخت من كتبه التي طالعها قبل دخوله السجن، فكلتاهما متفقتان على إظهار أن طبيعة عمل المنجمين توافقت وإيديولوجية الحكم العباسي الذي بنى سلطته على إدعاءات تعزز من صورة ملكه على أنها: "حتمية الحصول—وجدتك في الأحكام النجومية تملكني؛" و"ممتدة مكانا وزمانا في أمدها— حتى تملك فارس وخراسان والجبال؛" وأنها "مكتَسبة قدريا—قد قضى الله من السماء." وبناءً عليه، فقد أصبح التنجيم خصوصا الوسيلة المفضلة للحكام العباسيين، من بين وسائلهم الأخرى المعتمدة على الغيبيات، في تعزيز مفهوم سلطتهم. فهو يوافق ما بين تصور العباسيين لأنفسهم بأنهم خلفاء الله في أرضه، بقدره واختياره، وتأكيد المنجمين لهذا التصور من خلال ربطه بأحكام النجوم. في هذا الخصوص يقول سيد أرجوماند Saïd Arjomand:

من أقدم الوسائل في صناعة الادعاءات الخاصة بالتنبؤ بالمستقبل هما: علم الأعداد (ygoloremun) والتنجيم (ygolortsa) [...]. لكن علم المسلمين المتميز في التنبؤ بالمستقبل هو ما أُطلق عليه "التنجيم السياسي،" هذا هو علم توقع الثورات السياسية من خلال أحكام النجوم الذي شهد تطورا مع قيام الثورة العباسية. وقد تبنى هذا العلم تقنيات علوم التنجيم الساسانية في التنبؤ بتغير الأسر الحاكمة على أساس القاعدة الفلكية البطليموسية، ومستندأ إلى مفاهيم زرادشتية عن تعاقب العصور الألفية [...] في الواقع، التنجيم السياسي، على وجه الخصوص، كان أكثر العلوم النبوئية التي نالت احتراما فيما يخص قدرته على التنبؤ بالثورات المقدر حصولها مستقبلا للهيمنة وحكم العالم.[19]

هذا التفسير لسبب انفراد التنجيم، دونا عن غيره من فروع المعارف الحاصلة بالنبوءات، بمكانة مرموقة في العصر العباسي (لكونه قادرا على توقع ثورات سياسية، يتغير على إثرها سلالات الأسر المالكة المهيمنة على حكم العالم الإسلامي، من خلال قراءات لتركيبات نجمية، مستندة على أسس علمية موروثة من عهود قديمة، أثبتت كفاءة في هذا المجال)، يوضح سر انجذاب العباسيين لعلم التنجيم الذي أثبت علماؤه أن النجوم مُنْبِئة بأن الأسرة العباسية هي التي تلي حكم العالم في زمانهم، كما أخبر نُوْبَخت المنصور، وهما سجينان في عهد الأمويين، وكما سيؤكد عليه أتباعٌ له من منجمي العصر، بطرق أكثر احترافية، مستندة إلى مصادر فلكية تدرس حركة النجوم وتترجم حركاتها وقرانات كواكبها على أنها دلالات 'جازمة' بحكم العباسيين للعالم. على سبيل المثال، المنجم الشهير، ما شاء الله ابن الأثري اليهودي (ت. (تقريبا) 199/ 815)، فسر تحويل التثليث الذي حصل في العام 19 مارس 571م بأنه ينبئ ببزوغ فجر الإسلام وهيمنة

العرب على غيرهم من الأمم [20]. ثم نجد ما شاء الله هذا يضيق حيز النبوءة لتتفق وسيطرة الأسرة العباسية بخاصة على الحكم؛ فيفسر القران الحاصل في 19 مارس 749م بين المشتري وزحل على أنه كان دلالة على نهاية دولة الأمويين وابتداء عهد الحكم العباسي. [21] ثم يأتي من بعد ما شاء الله المنجم أبو الفضل أحمد بن طاهر طيفور (ت. 280/ 893) ليفسر الظاهرة الفلكية الأخيرة، الخاصة باقتران زحل والمشتري في الاعتدال الربيعي لعام 749م، على أنها مؤشر على "تحويل سني العالم" يُنبئ بتولي الأئمة من بني هاشم، على وجه الخصوص، للحكم، وهو الانقلاب الذي وصفه ابن طيفور بأنه "الانقلاب الكُلي في الدين والمُلك." [22]

منجمو البلاط الحاكم العباسي إذن فهموا جيدا الدور المنوط بهم تأديته؛ وهو توظيف فهم التغيرات الكونية الحاصلة في عصرهم على أنها دلالات تشير إلى تغيرات حاصلة في عوالم البشر تظهر صعود العباسيين لا محالة إلى الحكم، وتثبت حصوله على أنه إرادة إلهية حتمية التحقق، عبَرت عنها تغيرات النجوم ومواقعها الفلكية.

اهتمام العباسيين لم يكن مقصورا فقط على فرع التنجيم السياسي التاريخي الذي يرصد الأحداث الكونية الكبرى المصاحبة لتغير حاكمي الدول من خلال التغيرات الحاصلة في تركيبة الأجرام السماوية. هو أيضا يجعل من النبوءات النجمية (من نوعية المسائل والاختيارات)[23] معاونا له في تسهيل التخلص من أحد الأذرع الهامة في وصول العباسيين للسلطة. في هذا السياق، يخبرنا الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، أن نبوءة تنجيمية سرت في الآفاق تفيد بمكانة قيادية مرموقة لأبي مسلم الخراساني (100-137/ 718-745) يستحق عليها لقب "مميت دولة ومحيي أخرى." [24] مضمون النبوءة، وما تحتمله من فوقية واستشعار منة من القائد الخراساني على العباسيين، الذين 'أحيا دولتهم' بما كان له من دور ريادي في 'إماتة دولة الأمويين،' تعزز من الأسباب الداعية إلى تشكك المنصور في ولاء القائد الخراساني للعباسيين. وسواء استشعر المنصور أن أبا مسلم يوظف التنجيم لصالحه، كما يفعل العباسيون أنفسهم، أو اعتقد بحقيقة النبوءة، فقد أراد تخلصا سريعا من أبي مسلم، عدو اليوم صديق الأمس، بطريقة ذكية، حتى لا يثير غضب الفرس المنتمي إليهم أبو مسلم، حال تبين لهم تلوث أيدي العباسيين بدمائه، ما قد يشكل تهديدا حقيقيا لحكمه. وتأتي شكلية التخلص تلك بإشاعة نبوءة تفيد بالمكان الذي يلقى فيه أبو مسلم حتفه وهو (بلاد الروم). المصادر التاريخية تفيدنا بأن أبا مسلم نفسه كان مصدقا بها: "كان يجد خبرَه في الكتب السالفة، وأنه يُقتل بالروم، وكان يُكثِر من قول ذلك." ثم نحن بعد ذلك نجد المنصور يتوجه مع أعوانٍ له من الأنبار إلى مكان يقارب في مسماه الموقع المُتنبأ لأبي مسلم أن يلقى حتفه فيه، "روميَّة،" وهي روميَّة المدائن التي هي على مسافة بعض يوم من بغداد، وهناك يكتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه، وعند وصوله يأمر بقتله.[25] فيُظهر الأمر على أنه تحقيقٌ لقدر سبق معرفته من خلال نبوءة، ليبرئ نفسه من تهمة قتله. [26]

من منظور استراتيجية التنصل هذه، نتساءل: هل كان المنصور هو الحائك لخيوط المؤامرة التي هدفت للتخلص من أبي مسلم القائد الخراساني (ابتداءً من الترويج لنبوءة مقتله، وانتهاءً بتحقيقها في الموقع الذي تُنبئ أنه يموت فيه)، بمعاونة ربما من منجمي قصره؟ الجواب لا نجد له شواهد دامغة من أدلة مستندة إلى مصادر تاريخية تثبت أو تنفي التساؤل، لكن شواهد الجُرم والمؤامرة المتضمنة في ثنايا قصة القتل تلك، وما نعرفه من استراتيجيات اعتمدها العباسيون في التخلص من أعدائهم، ترجح اعتبار المنصور وأعوانه من منجمي البلاط ملكي هم مطلقو مثل تلك الشائعات المتلبسة طبيعة النبوءات، أيا كان مصدرها: (كتب الأقدمين أو الأجرام السماوية).

وجه العباسيون اهتمامهم أيضا لما تخبر عنه النبوءات النجومية من أحداث تفصيلية تتعلق 'بإنفاذ أوامر ديوانية صادرة من بلاط الخلافة.' فالمنصور مثلا، في الحادثة الشهيرة، عندما أراد تغيير مقر حكمه من الهاشمية إلى مدينة جديدة، لا يبتدئ بناء عاصمة دولته الجديدة (بغداد) إلا بعد استشارة منجميه الذين يرشدونه لأفضل الأماكن وأنسب الأوقات لرمي أساسات مدينته. وفي ذلك، يخبرنا البيروني في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية إن رئيس منجمي القصر حينها (نُوبَخت) أمر أن يكون ابتداء البناء في الثالث والعشرين من تموز من سنة ألف وأربع وسبعين للإسكندر—[الموافق: 26 ربيع الثاني 145هـ/ 23 يوليو من عام 762]. [27]

ثم هو، وبعد الانتهاء من بنائها، يسترشد أيضا بمنجميه في معرفة طالع المدينة، فإذا طالعها، كما يخبره المنجمون، يُظهر المشتري في برج القوس، ما يثبت "طول زمانها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها،" ويزيد أحدهم: "وأبشرك يا أمير المؤمنين – أكرمك الله – بخلة أخرى من دلائل النجوم: لا يموت فيها خليفة من الخلفاء أبدا،" فيتبسم الخليفة على هذه النبوءة، الضامنة لثبات واستمرارية حكم العباسيين، ويرد بما يوحي أن هذه الدلالات النجومية هي تأييد رباني لملكهم: "الحمد لله، ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم." [28] ثم يعقب البغدادي في كتابه على ذلك بما يؤكد تحقق نبوءة المنجمين. [29]

وهنا نذكر قصة المنصور الشهيرة التي روج لها عند إرادته إنشاء عاصمته الجديدة تلك قبل البدء بتنفيذها ابتداءً: فقد أشاع أنه التقى راهبا في المدينة فناداه، وسأله: "تجدون في كتبكم أنه تبنى هاهنا مدينة؟" فيجيبه الراهب: "نعم، يبنيها مقلاص،" فيرد أبو جعفر: "أنا كنت أُدعى مقلاصا في حداثتي!" فيرد الراهب: "أنت إذا صاحبها." [30] لا نعلم مصداقية الخبر الوارد من البغدادي وحقيقة نبوءة الراهب عن 'مقلاص باني بغداد،' التي يبدو أنه تحصل عليها من كتبه، لكن هذا الحرص من المنصور على تأكيد صواب قراره ببناء عاصمة جديدة من: أولا، كتب

الدين المُنبئة على أنه هو من يبني بغداد، ثم ثانيا، من المنجمين المختارين، حسب زعمهم، لوقت تشييد المدينة ووضع أساساتها بحيث يوافق حظا سعيدا لمن يحكم هذه العاصمة، تبدو من ضمن استراتيجيات المنصور في إنفاذ أوامر سياسية لا يريد لها أن تصطدم بمعارضة من الجمهور، فيقدم لها بنبوءة الراهب، ويعضد لها بحسابات المنجمين؛ ليلقى قراره قبولا واستحسانا من شعبه. هذا التفسير ربما وجد له ما يؤيده من شواهد في ضوء الخبر الذي يردنا عن الأحداث التي صاحبت قرار المنصور في بناء مدينة الرافقة. فالطبري يخبرنا أن المنصور عندما أراد أن يبني الرافقة بأرض الروم (في العام 771/154) امتنع أهل الرقة وأرادوا محاربته، وقالوا: "تُعَطل علينا أسواقنا، وتذهب بمعاشنا، وتضيق منازلنا!" فهم بمحاربتهم، وبعث إلى راهبٍ في صومعة، فقال: "هل عندك علم أنه يُبنى هاهنا مدينة؟" فقال له: "بلغني أن رجلا يقال له مقلاص يبنيها،" قال: "أنا مقلاص!" فبناها على بناء مدينة بغداد سوى السور، وأبواب الحديد، وخندق منفرد. [31] في الحقيقة، هذا الخبر – عن بناء مدينة الرافقة – هو غاية في الأهمية في تأكيد فرضيتنا الذاهبة إلى أن استناد المنصور إلى نبوءات، مصدرها ديني أو تنجيمي، لم يكن عن تصديق بحقيقتها، بل لتحقيق أغراض سياسية. فإن صدقنا بحصول نبوءة الراهب أولا عند رغبة المنصور بناء بغداد، فمن السذاجة أن نصدق حصولها ثانيا، وبذات التفاصيل، عند إرادته بناء الرافقة، بعد مرور ما يقارب عشر سنوات على النبوءة الأولى. وبالتبعية، إذا ساور الشك مصداقية النبوءات الدينية التي يصدرها المنصور ابتداءً عند إرادة إنفاذ أمر، فالمنطق يستدعي الشك في النبوءات اللاحقة والسابقة ذات المصدر النجومي، لأنها، في استراتيجية المنصور، لاحقة على وتابعة لذات المصدر ديني. النبوءات إذن، على اختلاف مصادرها، تلعب دور الوسيط بين المنصور وبين العامة من شعبه، لإقناعهم بأوامر صادرة من البلاط الملكي، يتفادى بها مواجهة مسلحة معهم.

نبوءات المنجمين أثبتت فاعلية أيضا في 'أوقات الحروب والمعارك' في عهد المنصور. يذكر ابن مسكوية في كتابه تجارب الأمم ما ينبه إلى أن من أسباب ثبوت المنصور عند محاربة الطالبيين: محمد (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم، ابني عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ما أخبره به الحارثي المنجم عندما استشعر جزع المنصور من خروج الأخ الأكبر منهما (النفس الزكية): "يا أمير المؤمنين ما يجزعك منه؟ فو الله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوما." [32] وكان خروج النفس الزكية على المنصور في الأول من رجب لعام 762/145، ومقتله قبل الفطر بثلاثة أيام من السنة نفسها. [33] وعليه، فتكون جملة المدة، ما بين خروج النفس الزكية على المنصور، والظفر به، ومن ثم مقتله، غير متجاوزة للتسعين يوما التي أخبر بها المنجم المنصور. ويذكر ابن مسكويه أيضا أن [نُوْبَخت] المنجم أثبتَه في قتال إبراهيم (الأخ الأصغر للنفس الزكية)، حينما هم بالعدول عن قتاله، بعد أن التحم الفريقان، فقال له: "يا أمير المؤمنين، الظفرُ لك، وستقتل إبراهيم!" فيرفض المنصور ابتداءً تصديق الخبر، ويحاول المنجم جعل المنصور يصدقه، فيقول: "احبسني عندك، فإذا لم يكن الأمر كما قلتُ اقتلني،" فبينا الأمر كذلك إذ جاءت الأخبار بهزيمة إبراهيم ومقتله، فيتمثل المنصور ببيت معمر البارقي:

فألقتْ عصاها واستِقرت بها النوى *** كما قرعينا بالإيابِ المسافر

ومن ثم يُقطع المنجم ألفي جريب بنهر حويزة، [34] وذلك لما ظهر له من صدق نبوءته. وهنا استطراد يستوجبه تداعي الأحداث، فنحن نجد أن كتب التاريخ تثبت للمنصور استشهاده بذات البيت الشعري الذي يدعي المؤرخون أن عائشة – رضي الله عنها – تمثلت به حينما أتاها نبأ مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الجد الأكبر للنفس الزكية. فكأن المنصور بذلك يستدعي في الذاكرة الشعبية ردة فعل شخص منتم بقرابة للبيت النبوي (عائشة، زوج الرسول (ص)—يقابلها المنصور، من أبناء عمومته) من مقتل رجل من البيت الطالبي (علي بن أبي طالب—يقابله محمد النفس الزكية) ليخفف من وطأة وقع خبر مقتل النفس الزكية على عموم الشعب؛ حين تتداعى المواقف متشابهة متمثلة موقفا سابقا من بيت النبوة تجاه أحد الطالبيين. [35]

وبالرجوع إلى موضوع النبوءة السابق، فسواءً أ صحت مثل هذه الأخبار أم لم تصح على الحقيقة، فالشاهد من مثل هذه الحوادث هو أن تداول هذه الأخبار كان بلا شك ليضفي صلاحية للدور المنوط بالمنجمين لعبه في البلاط الملكي: فهم يطمئنون الخليفة (بتأكيد الدعم والتأييد الربَّاني له)؛ وفي المقابل، يربكون صفوف العدو (بتداول الأخبار التي من شأنها أن توهن من عزيمة المقاتلين في صفوف العدو—داعمين خطتهم بما عرفوه من تشكيلة صفوف العدو الذين كان غالبيتهم، كما تخبر بذلك المراجع التاريخية، [36] من مرتزقة بلاد السودان، [37] الذين صدَّقوا بهذه الأقاويل وتأثروا بها. [38]

والتنجيم أيضا كان حيلةً استعان بها المنصور في تقوية عزيمة قادة جيوشه عند مواجهة الأعداء. فهو يستعين بنبوءاته في تثبيت ابن أخية وقائد جيشه (عيسى بن موسى) عند إيفاده لقتال إبراهيم الطالبي، السابق ذكره، وذلك عندما يذكر له، قبل توجُّهه إلى المعركة، أنَّ المنجمين تنبَّئوا بانهزام جيشه ابتداءً وانتصاره أخيراً: "إن هؤلاء الجبناء - يعني المنجِّمين – يزعمون أنَّك [لاق] الرجل [أي إبراهيم]، وإنَ لك جولةً حين تلقاه، ثم تفيء إليك أصحابُك، وتكون العاقبةُ لك." [39] الرواية تبدي المنصور، الذي يوسم منجِّميه بالجبناء، على أنه مصدِّقٌ بما يقولون جملة وتفصيلا، بل ويأمر قادة جيشه ببناء خطة المعركة على أساس ذلك القول وتلك النبوءات. [40]

لكن ما نعرفه من حنكة ودهاء المنصور في تسييس مملكته يتعارض منطقيا مع كونه كان مصدقا على الحقيقة بما يقوله المنجمون؛ إلى حد تسييس خطة معركة في ضوء نبوءاتهم. فهل اختلق وادّعى المنصور بعضا مما زعم أنها نبوءات

منجمين في سبيل تحقيق غرض أراده. استنادا إلى المصادر التاريخية، المنصور بعث ابن أخيه (عيسى بن موسى) في وقت سابق إلى قتال محمد النفس الزكية، الأخ الأكبر لإبراهيم هذا، وذلك حين خرج ثائرا على العباسيين. وتخبرنا المصادر ذاتها أنه، بعد أن أمر المنصور عيسى بن موسى بالتوجه لقتال محمد، قال لمن حوله: "ما أبالي أيهما قتل صاحبه." [41] هو إذن مضح بان أخيه منذ اللحظة الأولى من ابتداء صراع الأخوين محمدً وإبراهيم مع العباسيين، فلا عجب أنه، وقد نجا في مواجهة أولهما، يوجه به لقتال الثاني، آمِلا ربما في أن تتحقق أمنيته في التخلص من ابن أخيه مع عدويه من الطالبيين. فهل يكون إذن، ونوايا المنصور في التخلص من ابن أخيه قد جاهر بها لجلساء ديوانه، ما أخبر يه من نبوءة المنجمين لعيسى بن موسى هو من اختراع المنصور ليطمئن بها ابن موسى بانتصاره أخيرا، ليثْبتَ في ميدان القتال جولةً تلو الأخرى، بينما هو في حقيقة الأمر غير عابئ بما تكون عليه نتيجة المعركة، سواء جاءت بانتصار قائد جيشه (عيسى بن موسى) أو بمقتله؟

في الحقيقة، الدلائل التاريخية تشير إلى أن المنصور لم يكن فقط يفكر بالتخلص من عيسى بن موسى، بل هو حاول فعليا إتلافه بدس السم إليه، لكنه نجا من محاولة القتل تلك. [42] ولكن، ما دوافع المنصور في هذه الرغبة الملحة في التخلص من عيسى بن موسى؟ الدافع الأساسي هو ما أوصى به الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، من جعل ولاية العهد من بعده لأخيه (أبي جعفر المنصور) ثم من بعده لابن أخيهما (عيسى بن موسى). لكن أبو جعفر المنصور تلح عليه رغبة عارمة في تغيير ولاية العهد من بعده من ابن أخيه (عيسى بن موسى) إلى ابنه المهدي، فيجد تعنتا من ابن أخيه في الخضوع لرغبته، فيعمد لمحاولاته عدة للتخلص منه، حتى يرضخ أخيرا ويتنازل عن ولاية العهد للمهدي بن المنصور. [43] في ضوء هذا الدافع إذن تترجح إجابة السؤال المطروح سابقا عن موقف المنصور من التنجيم إلى كفة الرأي القائل بأن المنصور لم يكن مصدقا في نبوءات منجميه على الحقيقة، وأن بعضا من النبوءات التي كان يذيعها لم تكن إلا "اختلاقا" و"صنعا" منه هو شخصيا أو بمعاونة من منجميه ليحقق بها أهدافا سياسية أو شخصية تتفق وخطة يرمي لتنفيذها، ويجد في "فبركة" مثل تلك النبوءات مساعدا له في تحقيقها.

الدلائل تتكاثف لتشير مجتمعة إذن إلى أن المنصور هو من كان يحيك (بمساعدة من منجمي البلاط)، أمور النبوءات التي شاعت في عصره، أو على أقل تقدير ما كان يتعلق منها بأمور تمس حكمه والتثبيت له. سمح له بذلك بيئة ثقافية لمجتمع العصور العربية الوسطى صدقت في التنجيم وآمنت به، إما بسبب أمية شاعت، أو بسبب بيئة ثقافية أسس بنيانها المنصور لتكون مصدقة في التنجيم وعلومه. وهذا التصور الأخير هو المرجَّح عندنا؛ يؤيد ذلك ما شهده العصر من حركة ثقافية تنفي عنه أمية تكون دافعا لتصديقه بالتنجيم بسبب جهالة اتسم بها العصر. يترجح عندنا إذن الرأي الثاني القائل بسمة العصر الثقافية التي آمنت بعلوم التنجيم، أسس لها المنصور، بما كان منه من ابتداء حركة الترجمة في عصره بنقل كتب التنجيم أولا إلى العربية وجعلها في متناول العامة. في هذا السياق، يذكر نالينو أن وفدا من الهند وفد على المنصور في العام 154/ 771، وفيهم رجل ماهر في معرفة حركة الكواكب وحسابها على مذهب كتاب اسمه باللغة السنسكريتية (براهْماسْبُهُطسِدْهانت) فكلف المنصور ذلك الهندي بكتابة مختصر له، أمر بترجمته إلى العربية، واستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا في حساب الكواكب وما يتعلق بها من أعمال، شاع بين العامة باسم (سِدْهانت) ثم حُرِف إلى (السند هند). [44]

ويضاف لما سبق، فيما يخص ما ذكره ابن مسكويه عن أحداث الملاحقة التي كانت من المنصور للنفس الزكية قبل القبض عليه، ما يصفه بأنه "من الحكايات الغريبة،" ومن ذلك:

أن المنصور كان عنده قوم يتكهّنون فيخبرونه بموضع محمد. فكتب بعض أصحاب محمد ممن كان يتشيّع ويصحب أبا جعفر: "لا تقيمنّ في موضعك إلا قدر ما يسير إليك البريد من العراق."

فكان يقال لأبي جعفر: "نرى محمدا ببلاد فيها الأترج والأعناب." فيكون بالمدينة وينتقل، ثمّ يرونه بالبيضاء، وهي من وراء الغابة على عشرين ميلا، وهي لأشجع، فيكتب إليها، فيقال له: "قد خرج." ثمّ يقال له: "إنه ببلاد الجبال والقلات" فيطلبه فيقال: "خرج،" ثمّ يقال له: "إنه ببلاد الحبّ والقطران،" فيقول: "هذه بلاد رضوى،" فيطلبه ولا يجده.

وكان الناس يقولون: "عند أبي جعفر مرآة ينظر فيها، فيعلم الغيب منها،" ويكثرون من الأحاديث. [ولا] يشكون في أن أبا جعفر يطلع الغيب، ويعلمون لذلك خرافات مختلفه من أخبار الجن والمرآة التي ذكرتها. [45]

وفي ذكر امتلاك المنصور لمرآة سحرية يطلع بها على مكان اختباء أعدائه (الواردة في الخبر أعلاه)، دلالة مباشرة على أن العباسيين بعامة، والمنصور بخاصة، كانوا متبعين لسياسات سلفهم الأمويين بعامة، في تسيير شؤون دولتهم، وفي توظيفهم النبوءات بخاصة لتحقيق أغراض سياسية ومصالح شخصية. ففي الطبري نجد الخبر عن آدم أنه لما أهبطه الله إلى الأرض من الجنة، رفعه على جبل أبي قُبيس، فرفع له الأرض جميعا حتى رآها وقال: "هذه كلها لك،" قال: "أي رب، كيف أعلم ما فيها؟" فجعل له النجوم فقال: "إذا رأيت نجم كذا وكذا كان كذا وكذا، وإذا رأيت نجم كذا وكذا كان كذا وكذا،" فكان يعلم ذلك بالنجوم. ثم إن ذلك اشتد عليه فأنزل الله مرآة من السماء، يرى بها ما في الأرض، حتى إذا مات آدم، عمد إليها شيطانُ يُقال له فَقْطَس، فكسرها وبنى عليها مدينةً بالمشرق يُقال لها جَابَرت، فلما كان سليمان بن داوود سأل عنها، قيل له: "أخذها فَقْطَس،" فدعاه فسأله عنها، فقال: "هي تحت أواسي جَابَرت،"فقال: "فأتني بها،" فقال: "فمن

يهدمها؟" فقالوا لسليمان قل له: "أنت،" فقال له سليمان: "أنت،" فأتى بها سليمان، فكان يُجْبِر بعضها على بعض، ثم يشدُها في أقطارها بسَيْر، ثم ينظر فيها، حتى هلك سليمان، فوثبت عليها الشياطين فذهّبت بها، وبقيت منها بقية توارثتها بنو إسرائيل، حتى صارت إلى رأس الجالوت فأتى بها مروان بن محمد، فكان يحكها ويجعلها على مرآة أخرى، فيرى فيها ما يكرهه فرمى بها وضرب عنق رأس الجالوت، ودفعها إلى جارية له فجعلتها في كرفسة ثم جعلتها في حجر. فلما استُخلِف أبو جعفر سأل عنها، فقيل له: "هي عند فلانة،" فطلبها حتى وجدها فكانت عنده، فكان يحكها ويجعلها على مرآة أخرى فيرى فيها محمد (النفس الزكية). [46] وشاعت بين العامة بعد عن أبي جعفر أنه "كان عنده مرآة يرى فيها عدوه من صديقه." [47]

على صياغة اشتدي يا أزمة تفرجي، نقول هنا، تكشفي يا دلائل تُبيني. فالخبر السابق عن المرآة السحرية (التي كانت تعكس حركات النجوم ودلالاتها ابتداءً، ثم عكست لاحقا أحوال أفراد من يُراد تقصي أخبارهم)، وأن الأمويين امتلكوها أولا لكنهم، بحسب ما شاع من أخبار،[48] رأوا فيها ما يكرهونه لأنفسهم، ثم امتلكها العباسيون لاحقا فكانت عونا لهم في الكشف عن أعدائهم، مثل هذه الشواهد من الخرافات إن دلت على شيء فلن تدل أبدا على لجوء الخليفة لمثل تلك الوسائل في إدارة شؤون حكمه تصديقا بها. إنما تقودنا إلى تأكيد ما ابتدأنا به بحثنا من القول بأن 'إطلاق الشائعات' ذات الطبيعة النبوئية (سواء منها المستندة في مصادرها إلى كتب من العهود القديمة، أو لأجرام سماوية، أو لمرآة آدم، أو لغيرها من مصادر النبوءات الغيبية) كان سياسة اتبعها الأمويون أولا، وسار على نهجهم فيها من بعدهم العباسيون، بطريقة أكثر احترافية، لتحقيق أهداف سياسية. فكان إشاعة تلك النبوءات الغيبية، وإيهام شعوبهم بمصداقيتها، هو توظيف لتلك الإشاعات للعب 'دور مخابراتي،' يعينهم في تسيير أمور دولتهم واستتاب أمنهم وسلطانهم، مما خلق بيئة ملائمة لازدهار هذا النوع من 'الإعلام الكاذب،' شجع القائمين عليه للترويج له، وحبك المزيد من مثل تلك 'الأخبار المكذوبة' لتحقيق مكاسب شخصية وسياسية.

خاتمة

رغم أن العباسيين كانوا مقلدين لسلفهم الأمويين في استراتيجيات الحكم (التي تفاوتت من الرصينة إلى المبتذلة) إلا أنهم، مع صعودهم إلى سدة الحكم، أخذوا بعين الاعتبار استيعاب أخطاء التطبيقات للسياسات الحاكمة التي وقعت فيها الإمبراطورية الأولى في العالم الإسلامي. والتنجيم مثّل إحدى استراتيجيات الحكم التي حاول الأمويون الاستفادة من دورها السياسي وأخفقوا، وأعاد بعثها العباسيون، على أسس إبستيمولوجية، فأثمرت لهم مكاسب جمة على المستويين الشخصي والسياسي. في مقارنته بين الدور الذي لعبه التنجيم في كلٍ من أوروبا والبلدان الإسلامية في العصور الوسطى يقول جان باتريس بوديت:

مهما تكن أهمية الدور الذي لعبه التنجيم في حياة العامة في الدول الأوربية في العصور الوسطى، لكنه لم يتعدِ أن يكون ثانويا فيما يخص كونه مصدرا للاستشارات، المعلومات، الشائعات والقوة. أما في البلدان الإسلامية، فالوضع كان مختلفا، وذلك بحسب مصادر تاريخية من مثل كتاب ابن طاووس وغيره [...] ففيها من الشواهد ما يشير إلى أن التنجيم نال استحسانا متواصلا في محيط البلاط الملكي خلال العصر العبَّاسي." [49]

هذه الدراسة أثبتت أن هذا الاستحسان الذي كان من خلفاء العصر العبَّاسي للتنجيم ابتدأه الخليفة المنصور (أول من فتح باب التوظيف الرسمي للمنجِّمين في بلاط الخلافة الإسلامية)، وبيَّنت عن الأسباب الداعية له. لقد كان لطبيعة التنجيم الإبستمولوجية، القادرة على خلق أوهام وتحوير حقائق، معللة بأسباب علمية تربط حركة الأجرام السماوية بآثارها على أقدار الأفراد والممالك الأرضية، متوافقة وإيديولوجية الحكم العباسي التي وظفتها في إشاعة "ثقافة نُبوءات" لتحقق بها مصالح شخصية وطموحات سياسية. استنادا إلى هذه الفرضية، حققت الدراسة عددا من الأخبار التاريخية التي كشفت عن الدور الهام الذي لعبه التنجيم في عهد الخليفة المنصور، بما حفزه من نبوءات (ظاهرها مقولة منجم، وباطنها ترهيب وترغيب للمحكومين في رغبات حاكمهم السياسية).

فسر منجمو البلاط الحاكم في عهد المنصور التركيبات الفلكية للأجرام السماوية على أنها دلالات كونية على أحداث أرضية عظيمة، أهمها تلك المتعلقة بالتأييد الرباني للأسرة العباسية الحاكمة في إدارة إمبراطوريتها من منطلق مفهوم 'السلطة المطلقة.' كما كان لنبوءاتهم دورها في التسهيل على المنصور إنشاء مدنٍ جديدة (مثل بغداد والرافقة)، دون مواجهات عنيفة مع غضبة شعبه إزاء هكذا قرارات رأوا أنها قد تضر بتجارتهم ومساكنهم ومعيشتهم عند تنفيذها؛ فقد استطاعت تلك النبوءات امتصاص غضبهم بإظهار الأمر على أنه قرار وتقدير 'رباني،' حتمي النفاذ حتى لو تعارض مع مصالح العامة. أيضا كان للمنجمين دورهم البارز في تخليص المنصور من ألد أعدائه (كما حصل مع القائد أبي مسلم الخراساني). وكان لهم بريقهم في تحقيق انتصارات لجيوشه في ساحات المعارك (كما حصل عند قتال الأخويين الطالبيين-محمد النفس الزكية وإبراهيم). في كل ما سبق، أمثلة وشواهد دالة على الدور الذي لعبه التنجيم في إشباع نهم المنصور من سلطانه. لقد كان الخليفة المنصور 'مهووسا بالسلطة،' وأدرك المنجمون هذا 'الهوس المنصوري' فأعملوا جهدهم في تحقيق ما كان يصبو إليه الخليفة من طموحات سياسية هدفوا منها إلى تحقيق مكاسب شخصية لهم، أثمرت تبوأهم مكانةً مرموقة (في عهد المنصور بخاصة والتاليين له من خلفاء الدولة العباسية في حقبتها الأولى) لم يشهد لها

تاريخ العالم الإسلامي مثيلا حتى اليوم.

يخبو قليلا وهج منصب 'منجم البلاط' في عهد الخليفة المهدي (ح. 158-169/ 775-785)؛ ذلك أنه أراد أن يضفي على خلافته صورة الإمام الورع التقى، وهو ما يتنافى والتصديق بالنجوم. فلا تجد كثيرَ خبرٍ عن صلته بالمنجمين إلا النادر. ومن ذلك ما رواه الطبري، في توثيقه لأحداث العام 163 هـ/780م، عن أبي بديل الذي أخبر أنه كان صاحبا لاثنين من حُجاب الخليفة المهدي اللذين أخبراه أنهما تكشفت لهما مدة حكم المهدي مما أطلعهما عليه غلامٌ لهما يُدعى الغمر بن يزيد من كتاب دولة (أي من كتب الحَدَثان التي يوثق فيها ما يكون من أحوال الدول حسب نبوءات المنجمين)،[50] وأن مدة حكمه ستكون عشر سنين. وكان اجتماعهم ذلك في العام 163 هـ/780م، حسب تأريخ الطبري—وكان مضى على حكم المهدي خمس سنين؛ مما يعني أن المتبقي من مدته تقارب خمس سنوات فقط. فيقول أبو بديل للحاجبين وغلامهما، بعد إتمام احتساب المدة: "فإن كان أمير المؤمنين قد نقص من سنه ما نقص، أ فلستم أول من نعى إليه نفسه؟" ويصف حالهم عند سماعهم قوله "كأن بلادةً اعترتهم من هول الأمر." فما كان من أبي بديل، بعدما خاف انكشاف قصر الأمد المتبقي على خلافة المهدي، إلا أن أمر باستدعاء الوراق (القائم على هذه الشؤون من تحرير المخطوطات) ليطلب منه أن يخط مثل هذا الخط، ورقة مثل الورقة المكتوب فيها الأصل، ويصير مكان عشر سنين أربعين سنة، ويصيرها في موضعها من مكانها في المخطوط المنزوعة منه الورقة الأصلية. ويعقب أبو بديل على إتقان صنعة الوراق: "فوالله لولا أني رأيت العشر في تلك الأربعين في هذه ما شككت أن الخط ذلك الخط، وأن الورقة تلك الورقة."[51] تزوير الوثيقة إذن كان مخرج أبي بديل من مأزق مواجهة المهدي بالمتبقي له فعليا في مدة حكمه، حسب نبوءة المنجمين. وهو ما يعني استمرارا للدور الذي لعبه التنجيم في البلاط الحاكم في عهد المهدي، وإن كان بخفاء، وأن المهدي اعتقد في التنجيم على الحقيقة وصدق في نبوءاته، رغم ما حاول إظهاره من خلاف ذلك.

ثم لا نعرف من النبوءات في عهد الهادي (ح. 169-170/ 785-786) سوى تلك المتعلقة بقصر مدة حياته، حسب ما اقتضته أحكام النجوم عند مولده في الري، [52] وما كان من يحي بن خالد البرمكي (الذي تصفه المصادر أنه كان وقتها "القيم بأمر الرشيد (الأخ الأصغر للهادي)"— أي المتعهد لرعايته والقائم على إدارة شؤونه) من استغلال لتلك النبوءة في التمكين للرشيد في الحكم. فالمصادر التاريخية تخبرنا أن الهادي أراد تغييرا في ولاية العهد، وذلك خلافا لإرادة الخليفة الأب (المهدي) الذي كان قد أوصى بولاية العهد من بعده لابنيه: الهادي أولا ثم من بعده أخيه الأصغر هارون الرشيد. الهادي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، ويجعلها في ابنه جعفر بن موسى. لكنه يجد معارضة شديدة من الرشيد وأمه الخيزران. فيتحايل يحيى البرمكي على الهادي بأن لا يخلع أخاه، ويقنعه بأن الناس لن ترضى بمبايعة ابنه جعفر (الذي لم يكن قد بلغ الحِنث بعد). ويخيِّل إليه أن الناس ستخلع ولايته هو (الهادي) إذا وقع هذا الأمر. ثم هو يحسِّن للهادي أمر الإبقاء على ولاية العهد في هارون ومن ثم مبايعة جعفر بالخلافة من بعده، فيستحسن الهادي الأمر ويرجع عن خلع أخيه. وبالتوازي، ينصح البرمكي هارون الرشيد بالخروج للصيد والبقاء فترة لا بأس بها في اللهو والتلاهي عن الأمور السياسة، "وأن يطيل التشاغل بذلك، فإن مدة موسى]الهادي[قصيرة على ما أوجبته قضية المولد."[53] وتصدق النبوءة؛ فلا يلبث الهادي في الحكم سوى سنة وثلاثة أشهر.

في ظل العناية التي كانت من يحيى البرمكي للرشيد (ح. 170-193/ 786-809) ودوره في تمكينه من الحكم، يتبوأ البرامكة أعلى المناصب في دولة بني العباس مع تولي الرشيد للخلافة. وفي ظل ما عُرف عنهم من معرفة بالتنجيم وممارسة له[54] يرتقى معهم منصب المنجم إلى مرتبة وزير.

ورغم ما حصل لمكانة المنجمين من هزة في أواخر عهد الرشيد مع نكبة البرامكة،[55] إلا أن مكانتهم عادت للارتقاء في عهد ابنه المأمون (ح. 198-218/ 813-833)؛ لما كان لهم من مواقف ناصروه فيها على أخيه الأمين (ح. 193-198/ 809-813) وغيره من أنداده الطامعين في الخلافة.[56] وفي ذلك يذكر ابن خلدون: "أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان، أتحفه به في هدية، وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه، وبعقد اللواء لطاهر، وأن المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره لانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه، [...] فسأله من أين لك هذا؟ فقال: من كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج."[57] في الحقيقة، هذا الخبر الذي يحكيه ابن خلدون في مقدمته يبين كيف أصبح المنجمون مفردة هامة في قائمة الهدايا القيمة المتبادلة بين ملوك ذلك العصر، ويكشف عن المكانة العالية التي تبوأها منجمو القصر في فترة حكم المأمون بخاصة. فحركة الترجمة التي بلغت أوجها في عهده، وما أُثرت به علم التنجيم من أسس معرفية عززت من مصداقيته عند الخاصة والعامة، ومصاهرة الخليفة المأمون لأسرة بني سهل التي اشتهرت بالتنجيم وتقلدت العديد من المناصب الوزارية في عهده، كلها عوامل اجتمعت وتضافرت لتمكن للتنجيم من بلوغ ذروة عليائه في عصر الخلافة العباسية.

ولكن عهد المعتصم (ح.218-227/ 833-842) شهد الضربة التي قضت على مكانة التنجيم وأنزلته من عليائه، وذلك بعد ما حققه المعتصم من انتصارات في فتح عمورية الشهير، وذلك على خلافٍ من رأي المنجمين الذين حذروه من خوض المعركة في الشتاء لأنه – بحسب نبوءاتهم وكتبهم – فإن انتصاره لن يحصل إلا بموافقة موسم حصاد التين والعنب (أي الصيف)، وهو ما لم يستمع له المعتصم، وعمل بخلافه، فتحقق له النصر العظيم الذي وثقه المؤرخون والأدباء والشعراء،[58]

وجعل من منجمي البلاط أضحوكة العصر في عهد المعتصم، فلم تقم لهم من بعده قائمة كالتي كانت لهم في عهد خلفاء بني العباس السابقين عليه.

الهوامش

1- انظر إدوارد وليام لين، "ألف ليلة وليلة عند مترجميها: الحياة العربية في العصور الوسطى (دراسات من ألف ليلة وليلة)،" ترجمة: يحيى الجبوري، المورد (مجلة تراثية فصلية-عدد خاص عن بغداد)، المجلد 8، العدد 4أ شتاء 1979، ص.ص.: 612-589، بالخصوص: ص. 591.

2- انظر المرجع التالي:

Dimitri Gutas, Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early 'Abbasaid Society (2nd-4th/5th-10th c.) (London & New York: Routledge, 2002), particularly pp.: 45-60.

3- رضي الدين أبي القاسم على بن موسى بن طاووس، فرج المهموم في تأريخ علم النجوم (قم: منشورات الرضى، 1363هش (1984م))، ص.209.

4- المصدر السابق.

5- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مراجعة: كمال حسن مرعي (بيروت: المكتبة العصرية، 4 مجلدات،2005)، ج. 4، ص. 250.

6- رضوان السيد، "الآداب السلطانية ومرايا الأُمراء والفكر السياسي الإسلامي،" ورقة بحث نوقشت في ورشة عمل بعنوان: "نحو تاريخ للنظرية السياسية في المجال الإسلامي، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية: ببيروت، 20-21 / 2/ 2012 م)، ص. 4. موقع النشر الإلكتروني:

http://www.ridwanalsayyid.com/cms/assets/pdf/5cd560cd04884fe09da4b71310b3748b.pdf

[تاريخ الدخول: 21/ 6/ 2016]

7- انظر مثلا خطبة أبي العباس السفاح (ح. 132-136/ 750-754)، أول خلفاء العباسيين، التي قالها عند توليه الخلافة وما عقب به من بعده "داوود بن علي" بعد نزول السفاح من المنبر واستكماله الخطبة نيابة عنه، في أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر العباسي الأول) ويليه ذيل الجمهره (القاهرة: مطبعة ومكتبة البابي الحلبي وأولاده، 4 أجزاء، 1933)، ج. 3، ص. 1-6. على النقيض من هذه الرؤية، يذهب صاحب البحث التالي إلى الرأي بأن العباسيين لم يكن لهم موقف معاد من الأمويين، بل ربما حاولوا إظهارهم بصورة حسنة، وهدفوا من ذلك إلى تحقيق أغراض سياسية وأخلاقية، متعلقة باستحقاقهم الإمامة دونا عن البيت العلوي المنافس لهم. للاطلاع على الدراسة انظر:

Tayeb el-Hibri, "The Redemption of Umayyad Memory by the 'Abbāsids," Journal of Near Eastern Studies, Vol. 61, No. 4 (Oct., 2002): pp. 265-241.

8- من ذلك مثلا، ما يرويه الجهشياري فيما كان من عبد الملك بن مروان (ت. 86/705)، من استشارة أحد كتبة ديوانه في أمر تولية الوليد ابنه لحكم أجزاء من مملكته، وما أشار به عليه من ألا يستعجل أمر توليته حاكما، ويجعله أولا على "المعاون والصوائف،" وهي تعني اليوم الجمعيات التعاونية وأنظمة الدعم التي توزع على المستحقين مؤونتهم من طعام وغيره في الشتاء والصيف، ليستميل قلوب الناس بها فيقبلوا به حاكما عليهم. ويعقب الجهشياري، في تعليقه على اتباع العباسيين للأمويين في استراتيجية استمالة قلوب العامة هذه بقوله: "ويشبه هذا ما حُكي عن أبي العباس الطواسي مع أبي جعفر المنصور،" الذي استشاره وآخرين في رغبته تولية ابنه المهدي حكم السواد وكوَر دجلة، فاستحسن رأيه الجالسون عدا الطواسي، الذي طلب خلوة مع الخليفة، ثم قال له: "أنت تريد أن تحببه إلى الرعية، وتقليدك إياه يبغضه إليهم، لاسيما ما قَرُب منك، ولكن يتولى هذه الولاية عيسى بن موسى [ابن أخ الخليفة وولي عهده]، ويُجعل المهدي الناظر في ظُلامات الناس، وتأمره بأخذهم بإنصافهم، فضحك المنصور حتى فحص بقدميه." (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، كتاب الوزراء الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1938)، ص.ص.: 37-38). سياسة حذو النعل النعل هذه في تدبير أمور الحكم لزمها العباسيون أيضا في تقدير رواتب رجال وعمال دولتهم. يذكر الجهشياري إن "أرزاق الكتاب والعمال زمان أبي جعفر، للرؤساء ثلاث مائة درهم للرجل، ونحو ذلك، وكذلك كانت في أيام بني أمية، وعلى ذلك جرت إلى أيام المأمون." (المصدر السابق، ص. 126 (المائل عملي)). أيضا تطالعنا كتب التاريخ أن يزيد بن معاوية اشتُهر عنه أن أمه، حينما كانت حاملا به، رأت في منامها أنه يخرج من قُبُلها قمر، فقصت رؤياها على أمها، فقالت لها: إن صدقت رؤياك، لتَلِدن من يُبَايَع له بالخلافة. وفي اتباع لهذا التقليد الخاص بالرؤى المنبئة عن خليفة المستقبل، نجد أبا جعفر المنصور يخبرنا عن سلامة، أمه، إنها حينما حملت به، رأت كأن أسدا خرج من قُبُلها، فأقعى وزأر وضرب بذنَبه، فأقبلت إليه الأُسُد من كل ناحية، فكلما انتهى إليه أسدٌ منها سجد له. (المسعودي، مروج الذهب، ج. 3، ص. 235). لا نعلم إن كانت رؤيا سلامة، ومن قبلها رؤيا أم يزيد، قد وقعت على الحقيقة أم مؤلفة، لكن الأبعاد السياسية التي ترمي إليها الرؤييان غير خافية على متبصر بما تتضمنهما من معنًى سياسي، يشير إلى سيطرة حاكم وخضوع محكومين ومناوئين على السواء لأمر سلطته. وفي جميع ما سبق شواهد على تأثر الإيديولوجية العبَّاسية الحاكمة بنظيرتها الأموية في توجيه الرأي العام لمحكوميهم.

9- يقول المسعودي عن الترجمة التي بدأ حركتها في العصر العباسي الخليفة المنصور: وهو أول خليفة [عباسي] ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها: كتاب "كليلة ودمنة،" وكتاب السندهند،" وترجمت له كتب أرسطاطاليس، من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي" لبطليموس، وكتاب الأرتماطيقي،" وكتاب "إقليدس" وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلقوا إلى علمها." المسعودي، مروج الذهب، ج. 4، ص. 250. المحبَّر عملي.

10- صاحب الفهرست يخبرنا أن خالد بن يزيد بن معاوية، أحد أمراء البيت الأموي و'حكمهم' هو أول من تُرجم له كتب من علوم الصنعة للأقدمين ومنها الطب والتنجيم والكيمياء. وفي ذلك يقول: "وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة." انظر أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم الوراق، الفهرست في أسماء العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق: رضا-تجدد، كتاب إلكتروني محقق:

http://mandaeannetwork.com/Mandaean/books/other/sabians_mandaean_alfahrast_kamel_abn_alnadiem.pdf

[تاريخ الدخول: 7/ 1/ 2017].

11- نسبة إلى المنصور وأبنائه من بعده الذين حكموا الخلافة العباسية حتى سقوطها عام 656/ 1258. في الحقيقة، يمكن القول إن الدولة العباسية كانت دولة منصورية بامتياز، حيث إن جميع من تولى الخلافة من بعد المنصور، الخليفة العباسي الثاني، هم أبناؤه وأحفاده على التوالي ولم ينقطع امتداد نسله في خلفاء بني العباس حتى آخر خليفة حكم الدولة.

12- السلطة المطلقة مصطلح يعني السلطة التي لا يخضع أي تصرف لها للنقد أو المعارضة وتكون ذات قرارات سيادية غير قابلة للنقض من قبل أي مؤسسة دونها (قضائية كانت أو تشريعية أو دينية أو اقتصادية). انظر التعريف في الموسوعة البريطانية:

"Absolutism, Political System:" Encyclopædia Britannica: http://global.britannica.com/topic/absolutism-political-system [accessed 22 /3/2016].

13- انظر في هذا الموضوع المرجع التالي:

Margoliouth, D.S. "The Sense of the Title Khalifah," in T. W. Arnold and R. A. Nicholas (eds) A Volume of Oriental Studies Presented to E.G. Browne..). Cambridge: Cambridge University Press, 1922. 322-28).

14- انظر الهامش 7 أعلاه.

15- انظر الهامش 8 أعلاه.

16- ابن كثير، البداية والنهاية، ج. 10، ص. 122.

17- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 24ج، 2001)، ج. 7، ص83.

18- عبد الغني الملاح، "العجوز في ألف ليلة وليلة،" المورد (مجلة تراثية فصلية-

عدد خاص عن بغداد)، المجلد 8، العدد 4 (1979): ص. ص.: 626-620؛ على الخصوص، ص. 621.

19- انظر المرجع التالي:

Arjomand, Said Amir. "Messianism, Millennialism and Revolution in Early Islamic History." Imagining the End: Visions of Apocalypse from the Ancient Middle East to Modern American. Ed. Abbas Amanat and Magnus Bernhardssori. London & New York: Tauris Publishers, 2002, 106-125, (particularly, pp.119-120).

20- انظر المرجع التالي الذي يوثق لمخطوطة ما شاء الله بدراسة دقيقة لما تضمنته من تفسيرات متعلقة بهذه النوعية من النبوءات:

Kennedy, E.S. and Pingree, David. The astrological History of Maashaa'Allaah: Harvard Monographs in the History of science. Massachusetts: Harvard University Press, 1971 ,)pp.: vi; 114, 50-51.).

21- المرجع السابق:

(p. 17, f. 215, r. 5).

22- انظر المرجع التالي:

British Library, Oriental MS. Add 7473, f. 60 a., cited in Saïd Amir Arjomand, "Islamic Apocalypticism in the classical Period," p. 400.

23- اندرج تنجيم العصور الوسطى تحت أربعة أنواع من النبوءات: (1) مواليد (Genethlialogy-nativity)؛ وهو ما يختص بتبيان سمات وحياة الشخص من خلال ما تكون عليه الهيئة النجومية للسماء لحظة الولادة؛ (2) المسائل (Catarchic astrology)؛ وهو ما يهتم بإجابة تساؤلات متعلقة بالقيام بنشاطات معينة، استنادا إلى ما تشير إلى تركيبة النجوم من نحوس أو سعود في الساعة المعتزم فيها القيام بالنشاط؛ (3) اختيارات (Interrogational astrology)؛ وهو يحدد جواب السؤال على اختيارات معينة، من هيئة الفلك المحددة في الإسطرلاب، لحظة طرح السؤال على المنجم؛ -4 تنجيم الحدثان (Mundane astrology)؛ ونطاقه هو التركيبة الفلكية للأجرام السماوية في دوراتها المختلفة (خسوف، كسوف، قرانات الكواكب، إلخ) وترجمتها بما يكون لها من آثار على الأمم والدول وخواص الناس (لا الأفراد من العامة). انظر المرجع التالي:

S. Nomanul Haq, "Astrology," The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World, 1((1995: pp. 143-145.

24- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع فهارس شاملة)، المحقق: محمد عبد المنعم الحميري، إحسان عباس (بيروت: هيدلبرج، ط. 2، 1984)، ج. 1، ص.277.

25- انظر قصة مقتله في: الحميري، الروض المعطار، ج. 1، ص. 276-277؛ وتفصيله في: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم (يحتوي على حوادث العصر العباسي من خلافة أبي العباس السفاح سنة 132هـ إلى آخر خلافة المأمون العباسي سنة 218هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن (بيروت: دار الكتب العلمية، 7 أجزاء، 1424هـ)، ج. 3، ص.41. نسخة إلكترونية:

http://ia802605.us.archive.org/28/items/waq77671/03_77673.pdf

[تاريخ الدخول 3/7/ 1437هـ].

26- في الحقيقة كتب التاريخ تظهر تنصل المنصور من مسؤوليته عن مقتل مناوئيه على أنها 'طبيعة' متأصلة في 'شخصية المنصور السياسية.' من ذلك مثلا، ما كان منه عندما أمر ابن أخيه (عيسى بن موسى، ولي ولي العهد حينها) بقتل عمه (عبدالله بن علي)، وما كان من امتناع ابن موسى من تنفيذ الأمر، استجابة لناصح أمين أشار عليه بأن المنصور ما يريد من ذلك إلا إلصاق تهمة قتل عمه (حال حدوثها) به؛ فيظهر الأمر على أنه غدر من ابن موسى بعمومته، فيكون مدعاة لخلعه من ولاية العهد، وهو ما أراده المنصور بشدة حينها ليخلو الأمر لابنه المهدي من بعده. ويستجيب ابن موسى للنصيحة، ويخفي عم المنصور في بيته فترة من الزمان، يوهم المنصور خلالها أنه تخلص منه. وعندما يطمئن المنصور إلى أن ابن موسى قتل عمه، يوفد إليه، في حضرة عمومته الآخرين، بطلب عمه، فيتظاهر ابتداء عيسى بن موسى أنه أمر محال، لأنه نفذ أمر المنصور بقتله، وعندما يتنصل المنصور من أمر القتل هذا ويأمر بقتل ابن موسى عقابا له على قتله لعمه، عندها يُظهر الأخير حقيقة أنه لم يستجب لأمر المنصور، وأنه أخفى عبد الله بن علي في بيته. عندها، يتظاهر المنصور أنه يريد لعمه البقاء في منزله، وما تلبث مدة وجيزة تنقضي حتى يُقتل العم بسقوط البيت الذي أسكنه فيه المنصور. فيشيع المنصور بين الناس أن سبب مقتل عمه هو سقوط البيت لا تدبير متعمد من المنصور نفسه للتخلص من عمه. في ذلك يذكر أحمد بن مسكويه، صاحب التجارب، إنه حُكي عن المنصور أنه ركب يوما بعد موت عبد الله بن علىّ، ومعه ابن عيّاش المنتوف، فقال له، وهو يحادثه: "هل تعرف ثلاثة خلفاء، مبدأُ أسمائهم العين، قتلوا ثلاثة ادّعوا الخلافة، مبدأ أسمائهم العين؟" قال :"لا أعرف إلّا ما تقول العامّة إنّ عليّا قتل عثمان، وكذبوا، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث، وسقط البيت على عبد الله بن علىّ." (دون أن يذكر في الثالثة اسم القاتل، وهو المنصور)، فيجيبه المنصور في أسلوب استفهامي تعجبي :"فسقط البيت على عبد الله بن علي، فأنا، ما ذنبي؟" قيرد المنتوف: "ما قلت إنّ لك ذنبا!"❖

المنصور، رغم أن المنتوف لم يصرح باسمه، يظهر تعجبا من أن يُتهم هو بمقتل عمه، ويظهر السبب على أنه قدر قضى بموت عمه بسقوط البيت عليه، متنصلا، كعادته من تهمة القتل. ❖انظرابن مسكويه، التجارب، ج. 3، ص. 236. نسخة إلكترونية:

https://ia902706.us.archive.org/7/items/Tajarob_Omam/03.pdf

[تاريخ الدخول 11/27/ 1437هـ].

27- انظر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: Dr. c. Eduard Sachau (ليبزيج: Otto Harrassowitz؛ بيروت: دار صادر، 1923)، ص. 270.

28- الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قُطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، تحقيق: بشار عواد معروف، تقديم: محمد بن إسحاق وَ محمد بن الحسن (بيروت: دار الغرب الإسلامي،17 مج.، 2001)، مج. 1، ص.376.

29- يعلق الخطيب البغدادي على ذلك بقوله: "ولم يمت بمدينة السلام إلا محمد الأمين، فإنه قتل في شارع باب الأنبار، وحُمل رأسه إلى طاهر بن الحسين، وهو في معسكره بين طباطبا وباب الأنبار." ثم ينقل عن التَّنوخي قوله: "محمد الأمين أيضا لم يُقتل في المدينة، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة يتنزه، فقبض عليه وسط دجلة وقتل هناك. ذكر ذلك الصولي وغيره. وقال أحمد بن يعقوب الكاتب: وقُتل الأمين خارج باب الأنبار عند بستان الطاهر." المصدر السابق، ص.ص.: 377-378.

30- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تأريخ الرسل والملوك، تدقيق وتحرير: (M. J. de Goeje)، تحقيق الجزء: (M. Th. Houtsma et S. Guyard) (الناشر: J. Brill, Lugd E. Lugd. Bat. ، 1880)، ج. 10، ص. 267. نسخة إلكترونية:

http://ia601403.us.archive.org/28/items/tarkhalrusulwaal10abaruoft/tarkhalrusulwaal10abaruoft.pdf

[تاريخ الدخول 12/3/ 1437هـ].

31- المصدر السابق.

32- انظرابن مسكويه، التجارب، ج. 3، ص.ص.: 78-79.

33- الطبري، تأريخ (1880)، ج. 10، ص. 304.

34- انظر ابن مسكويه، التجارب، ج. 3، ص. 108؛ وانظر أيضا الطبري، تأريخ (1880)، ج. 10، ص.ص.: 317-318.

35- انظر البيت في استشهاد عائشة – رضي الله عنها – به عندما أتاها نعي الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في أبي الفرج علي بن محمد بن الحسين الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر (قُم: منشورات الشريف الرضي، 1416هـ (1995م))، ص. 55. وانظر خبر استشهاد المنصور به في: تأريخ، الطبري، ج. 10، ص. 317.

36- في هذا السياق، يذكر صاحب تجارب الأمم: "وقال عبد الله بن راشد، ما كان في عسكر أبو جعفر كثير أحد، ما هم إلا سودان وناس يسير،" ج. 3، ص. 101. ويصف أيضا رجالات إبراهيم بن عبد الله أنَّهم كانوا "عراة من أهل البصرة،" (ابن مسكويه، التجارب، ج. 3، ص. 105).

37- لم يكن مصطلح السودان يعني فقط سكان المنطقة الجغرافية المسماة بالسودان

في عصرنا الحاضر؛ يذكر الجاحظ في رسالته: "فضل السودان على البيضان" في تعريفه للسودان: "السودان يعدون الزنج والحبشة، وفزان وبربر، والقبط والنوبة، وزغاوة ومرو، والسند والهند، والقمار والدبيلا، والصين وماصين. والبحر أكثر من البر، وجزائر البحر ما بين الصين والزنج مملوءةٌ سوداناً، كسرنديب، وكله، وأمل، وزابج وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل." أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2 أجزاء، 1964)، ج. 1، ص. 216.

38- يذكر الجاحظ في حديثه عن مناقب السودان، بخاصة أهل الهند والسند، أنهم برعوا في مجال التنجيم والنبوءات. الجاحظ، رسائل، ج. 1، ص.223.

39- ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج. 3، ص. 106.

40- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك (القاهرة: دار المعارف، ط. 2 منقحة، 11 مجلد، 1967)، ج. 7، 645.

41- ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج. 3، ص. 85.

42- أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ (127-127هـ)، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق (بيروت: دار الكتب العلمية، 11 مج.، 1987)، ج. 5، ص.: 181.

43-الطبري، تاريخ (1967)، ج. 8، ص. ص.: 9-25.

44- كارلو نلّينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب (بيروت: أوراق شرقية، 1993)، ص. ص.: 149-150.

45-ابن مسكويه، التجارب، ج. 3، ص.ص.: 71-72، (المائل عملي).

46- الطبري، تأريخ (1880)، ج. 10، ص. ص.: 165 -166.

47- المصدر السابق، ص. 166.

48- الطبري (ت. 923/310) الذي يورد الخبر، وهو الأب الروحي لعلم التأريخ في الدراسات العربية الإسلامية والمؤسس لمنهجه الاستقرائي لمن جاء من بعده من مؤرخين من أمثال المسعودي، ابن الأثير، وابن مسكويه، يقرر في مقدمه تأريخه، لمن قد تربكه ورود مثل هذه الأخبار في كتابه القيم وتشككه في مصداقية ما فيه من أخبار، أنه بريء منها وليس دوره فيها سوى النقل والتوصيل لأخبارها كما وصلته دون تنقيح وتعديل في محتواها، فيقول: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرتُ ذكرَه فيه مما شرطتُ أني راسمه فيه إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرُها فيه والآثار التي أنا مسندُها إلى رواتها فيه، دون ما أُدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه. إذ كان العلم بما فيه من أخبار الماضيين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضيين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا وإنما أوتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُديَ إلينا." الطبري تأريخ (1880)، ج. 1، ص.ص.: 7-6. (المحبر عملي).

49- انظر المرجع التالي:

Boudet, Jean-Patrice. "Astrology." Medieval Science, Technology, and Medicine: An Encyclopedia. Eds. Thomas Glick, Steven J. Livesey and Faith Wallis. New York & London: Routledge, 2005. 61-65. (particularly p. 65).

50- راجع الهامش 23 أعلاه.

51- الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج. 10، ص.ص.: 496-497.

52- المسعودي، مروج الذهب، ج. 3، ص. 276.

53- المصدر السابق.

54- المعروف من سيرة أسرة البرامكة أنهم كانوا من الفرس المهتمين بالتنجيم، الحاذقين بأصوله، والعاملين بأحكام نجومه. ويحيى بخاصة تبين المصادر ممارسته لهذا النوع من المعارف (فهو يتنبأ بنكبة أسرتهم على يد الرشيد بسبب خلافه مع ابنه الأصغر جعفر البرمكي، ويكتب يحيى في مخطوطة تاريخ النبوءة المتوقع تحققها وتكون في العام 187هـ، (انظر ابن طاووس، فرج المهموم، ص.ص.: 140-141). وتؤكد المصادر الإخبارية عن توافق تاريخ النكبة مع تاريخ النبوءة الذي حدده يحيى من حساب النجوم. (انظر في تاريخ وواقعة مقتل جعفر البرمكي على يد الرشيد: انظر الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص.ص.:234-235).

55- المصدر السابق.

56- انظر ابن طاووس، فرج المهموم، ص. ص.: 133، 134، -135، 142 -143.

57- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أحمد الزعبي (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د. ت.)، ص. 372.

58- الخبر وثقه أبو تمام في قصيدته الشهيرة ودعمه بالشواهد التاريخية التبريزي في شرحه له. انظر الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام (القاهرة: دار المعارف، مجلدان، 1951)، ج. 1، ص. 45.